العرب
الإثنين 2020/03/30
السنة 42 العدد 11662

«طاقيّة الوهم» سيرة لاجئ عراقي منبوذ

مغتربون يتمسكون بإنسانيتهم من خلال ولعهم بالأدب والموسيقى

شخصيات تحاول تجاوز محنها (لوحة للفنان سمير الصفدي)

مع التحولات الشكلية والفنية للقصة القصيرة العربية بإمكان هذا الجنس الأدبي أن يحمل قضايا إنسانية كثيرة في وعائه السردي، واختيار القصة لكتابة قضية بعينها لا يقلل من المساحة المتاحة أمام الكاتب، بل يمنحه مجالا أوسع لخلق نوع من الكثافة التخييلية بينه وبين قرائه، وهو ما نجده في المجموعة القصصية «طاقية الوهم» لعبد جعفر.

فيصل عبدالحسن
كاتب عراقي

يبحث جاسم وصديقه ماجد في مدينة هاجرا إليها ولا يعرفان طُرُقها وأحياءها عن مكان ستقام فيه أمسيّة موسيقيّة يحييها عازف مشلول اليد كان صديقا قديما لهما، عرفا ذلك من إعلان الجريدة. يصف جاسم تلك الأزقة التي يبحثان فيها عن المكان، بأنها كأنابيب المجاري، وهي تفضي إلى أزقة أضيق منها تصعّب فيها الحركة من دون أن يحتك الجسد بالحيطان المتآكلة.

كانا كمن يبحثان عن إبرة في كومة قش، ودارا بعد ذلك تائهين في هذه الأنابيب، من دون أن يهتم أحد ممن قابلوهما في هذه الأزقة الملتوية بالإجابة عن سؤالهما عن المكان المحدد للأمسيّة الموسيقيّة. أليس هذا البحث المتواصل عن المتعة والسلوان، الذي عالجا به غربتهما وفقرهما وقلة حيلتهما، وهما يواجهان عالما مُحيرا يهدد وجودهما وهويتهما. عالم يواصل الكاتب العراقي عبدجعفر نسجه في قصص متتابعة في مجموعته الأخيرة "طاقيّة الوهم".

الاغتراب هو الثيمة الرئيسية التي طرحتها معظم قصص المجموعة، حيث تصب القصص في ذات الرؤية التي اعتمدها الكاتب الأميركي هنري سيسلار في قصته "يوم الاختبار" التي ترجمها عبدجعفر، وضمنها كإحدى قصص "طاقيّة الوهم" ليؤكد من خلالها أن أي فتىً يولد مختلفا في درجة الذكاء والألمعيّة تكون نهايته الفقدان والاختفاء السريع من عالمنا.

كشف الأسرار

عبرت قصص المجموعة عن رؤية مفعمة بالأمل، بالرغم من الرعب والخوف من المستقبل، الذي عاشه أبطال القصص المهاجرون من أوطانهم. رعبهم جاء من مواجهة الواقع الذي وجدوا أنفسهم فيه، وكل ما فيه يوحي بالضياع، لكنهم يحاولون التواصل مع الحياة والإمساك بأي خيط يقودهم للتواصل مع الآخر الذي يرفضهم. يبذلون الجهود لفهم الآخر والتناغم معه للحصول على اعترافه بهم وبوجودهم الإنساني. فهم خلال ذلك السعي المرير، يصابون بالكآبة والنكوص والتخلي عن أحلامهم، وبالتالي الانغلاق على النفس، وتقبل واقع العزلة على مضض.

تعيش الشخصيات محنا مختلفة كمهاجرين ولاجئين ومنبوذين من الآخرين، لكنهم يتمسكون بإنسانيتهم من خلال ولعهم بالفن والأدب، ويتعاملون مع هذا الولع الإيجابي كمخلص لأرواحهم الضاجّة بالخوف والقلق من المستقبل والآخر.

يستخدم القاص عين الكاميرا في رصد شخصيات قصصه، كما أنه يختار اللحظة التي يكون فيها وعي أبطاله في أدنى درجات التركيز ليستنطقهم، فنجده يستغل مثلا فترات النعاس، قبل النوم مباشرة، أو عند المرض وارتفاع درجة حرارة الجسم أو عند وصول حالاتهم النفسية إلى مرحلة الكآبة والهذيان، فيتصرفون كالمصابين بالفصام الذهني، كما حدث لبطل قصة "مشاكسة في مدينة ماكرة".

في هذه القصة نجد السيد حامد، العراقي المهاجر إلى بريطانيا، الذي بلغت به كآبة الاغتراب عن وطنه إلى ارتداء ملابس شتائية وفوقها معطف ثقيل في يوم حار من أيام صيف لندن. وأخذ يستفز الناس في الشارع بهيئته الشتائية الغريبة تلك، بينما كان الجميع يلهثون من حرارة الشمس، ولفح الهواء الساخن، فاعتقدوا أنه مجنون. كان حامد يعتبر نفسه عاقلا ولكنه متمرد ومشاكس لطريقة عيش الناس في بريطانيا، وهؤلاء لا يعترفون به ولا يشعرون بغربته ويعاملونه كمهاجر غريب الأطوار أو مجنون.

وفي قصة "محاكمة الريح" يقف المتهم أمام القاضي، ليدافع عن نفسه من تهمة غامضة عنوانها "كشف الأسرار". وهو لا يعرف، ما معنى ذلك، فيدافع عن نفسه مبررا هجرته إلى بريطانيا "لما وجدت نفسي أنني لم أعد أستطيع التحمل، قررت أن أمضي بأرض الله الواسعة، فبحت بالأسرار للهواء والشجر، ولم يدر بخلدي أن لرمال الصحراء آذانا".

سفينة غارقة

في قصة "رحلة البحث عن كنعان" يستعد الصديقان جبار وهادي للبحث عن صديقهما كنعان، وقد استقيا معلومات عن سكنه من الكومبيوتر. المعلومات أشارت إلى "أنه يستقر في سفينة غارقة في زاوية قصية من شرق لندن". وهذه المعلومة المؤلمة عن وضعه استفزتهما. فقررا "إخراجه إلى الضوء وانتشاله من ظلمات النسيان، ليجعلاه حقيقة يراها الآخرون". عبارات القصة هنا مخاتلة، موحية بأنهما يبحثان عن حياة حقيقية ضاعت في غربة الهجرة.

ويخاطب هادي صديقه المفقود "لم تسع أنت للبحث عني، ومع ذلك فاليوم سأكتشف قاعك الذي تغوص فيه والحوريات الحالمات اللاتي يحطن بك" ويحكي عن مهمة صديقه جبار "سيصور شوقنا العاصف لك". ويعلن هدفهما "نحن نبحث عن طفولتنا وصبانا وشبابنا الضائع والمختفي والمعلن معك". وهي رحلة بحث عن ماضيهما المشترك. بحث مرير في أحياء لندن التي تلفظ شغيلتها في رحلة إيابهم إلى بيوتهم وإلى الحانات، عن سكن صديق لا يجدانه بالرغم من بحثهما الدؤوب عنه، فهادي يؤكد لصديقه جبار "لم يبق من العمر إلا ساعات ونحن نبعثرها في التوحد والأحزان والعزلة".

وفي منلوج طويل أثناء الرحلة في مترو لندن يصف حياته السابقة مع صديقه كنعان في بغداد "كنت أجدك مساء في زوايا المقاهي المسترخية على النهر والحانات المعتمة وفي المكتبة الوطنية وأنت تبحث عن كتب خاصة بأسباب انحراف النساء للبغاء، لمعرفة لماذا مديحة البيضاء صارت بغيا؟". وفي نهاية البحث المضني عن سكن كنعان يصطدمان بعمارة مسكونة بالأشباح وشقة صديقهما مقفلة، وقد بنت العناكب بيوتها حول مقياس كهرباء شقته، مما دلل لهما أن الشقة مهجورة منذ زمن طويل.

وأكثر قصص المجموعة تعبيرا عن حالة الضياع والإقصاء التي يعيشها المهاجرون هي قصة "الغريق" التي تحكي عن عودة شوقي إلى البصرة من منفاه ليبحث عن جذوره، فلا يجد أحدا، ومن خلال حوار خارجي مع النفس يتذكر شوقي أباه الذي يسميه بالخلاسي، وقد طلق أمه منذ عقود، وأمه التي يصفها بالمرأة البيضاء وبدورها تزوجت رجلا آخر، وتركته هو وإخوته الأطفال يعانون البؤس والحرمان والفقر. شوقي الذي جاء من بريطانيا محملا بالأشواق، والذكريات الحزينة عن طفولته، وصباه لمدينته ولشط العرب وأهله، لا يجد في النهر إلا الماء المالح، وقد اختفت أسماكه وصار آسنا، وملأت صدره رائحة عفونته.

> عبرت قصص المجموعة عن رؤية مفعمة بالأمل، بالرغم من الرعب والخوف من المستقبل، الذي عاشه أبطال القصص

وعندما أصابه اليأس من البحث عن الأم والأب والإخوة جاء إلى شط العرب مصطحبا حقيبته المحملة بالهدايا لأحباب غائبين، ليبث إليه شكوى الوحدة التي يعانيها في مهجره ووطنه، ولأنه يخاف من الانتحار غرقا في النهر، فقد فعل ذلك من خلال إلقاء حقيبته المملوءة بأوراقه الشخصية وهداياه إلى النهر، وانتظر حتى اختفت لتستقر في القاع.

أغلب القصص التسع، إضافة إلى خمسين قصة قصيرة جدا ومسرحية قصيرة ضمتها المجموعة حكت عن الوهم، الذي صور لشخصيات القصص أنهم أحياء ويعيشون كبقية البشر. ولكن في حقيقة الأمر أن أغلبهم إما أموات وإما ممن فقدوا عقولهم وإما يعانون من حالات الكآبة الحادة والفصام.

اختار الكاتب "طاقية الوهم" عنوانا دالا للتعبيرعن الإشكالية النصيّة، التي ناقشتها المجموعة، والعنوان بحق جاء معبرا بشموليته عن كل النصوص، التي حكت عن سيرة لاجئ عراقي يبحث عن أهله وأصدقائه المفقودين.

ونذكر أن "طاقيّة الوهم" هي المجموعة الرابعة لعبد جعفر، وقد صدرت مؤخرا عن دار لارسا في بغداد، بعد إصداراته "سقوف المنازل" 2003، "أحزان المرايا ومسراتها" 2015، و"البيت الأخضر" 2018.

«خلف الخط الأزرق» بين الارتباك والافتعال

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

عن دار "نقوش عربية" أصدرت الكاتبة التونسية الناطقة بالفرنسية أمال الشريف مؤخرا رواية بعنوان "خلف الخط الأزرق" بطلتها تدعى لينا، وهي فنانة تشكيلية متخرجة من معهد الفنون الجميلة بتونس العاصمة. وعند بلوغها سن الثامنة والعشرين، تقرر أن تتوقف نهائيا عن الاحتفال بيوم عيد ميلادها في الخامس من أغسطس كما تعودت أن تفعل، وتشرع في سرد ذكرياتها لنعلم من خلالها أنها تنتمي إلى عائلة بورجوازية من العاصمة.

نكتشف من حكايات البطلة أن والدها الذي توفي في حادث سيارة في طريق ريفي بعد أن اصطدمت سيارته بكلب سائب، كان يتحلى بأخلاق إنسانية عالية. كما أنه كان منفتحا على الآخرين بقطع النظر عن ثقافتهم، وديانتهم. أما والدتها فتعيش في المغرب مع أختها الصغرى ياسمين التي كانت قد تزوجت من شاب مغربي تعرفت عليه أيام دراستها للحقوق في باريس. وهي توحي لنا من خلال العديد من الإشارات والوقائع أن علاقتها متينة بوالدتها، وبأختها الصغرى. لذا، هي لا تتردد في طلب النصيحة منهما خصوصا في أوقات الأزمات النفسية التي بلغت ذروتها عند بلوغها سن الثامنة والعشرين.

وهي تستعيد ذكرياتها، نعلم أن لينا عاشت قصة حب أيام الدراسة مع شاب يدعى خليل. وهو مثلها من عائلة بورجوازية. وفي البداية، هي ظنت أنه سيكون "فارس أحلامها"، فقد كان وسيما، ومحبا للحياة مثلها. لكن شيئا فشيئا تكتشف من خلاله أناسا انتهازيين، ومنافقين، تغرهم المظاهر، وتجلبهم الحياة المسطحة، الخالية من العواطف ومن المشاعر الإنسانية الأصيلة، تقول "انتهازيون لا يترددون في أية لحظة في إشعال النار من أي حطب كان. وهم يزحفون على طول الحيطان المرمرية مثل كلاب برزت من مكان مجهول، ويمنحون أجسادهم مشوهة الشكل غذاء لكي يتخثّروا في بيوت الأغنياء".

ومن بين هؤلاء هناك أيضا فنانون مزيفون يبحثون عن الشهرة بأي ثمن، ونساء مطلقات وعزباوات وأرامل يعشن برودة الوحدة، ويعانين من اليأس، وفي نفس الوقت يحلمن بـ"أنهار من الجواهر الثمينة". وشيئا فشيئا، تكتشف لينا أن خليل يقودها إلى حياة تافهة، مجردة من كل ما يمت بصلة إلى أفكارها وأحلامها وآمالها. لذا تنصرف عنه غير آسفة، لتبحث عن طريق آخر يمكن أن يقنعها بأن "على الأرض ما يستحق الحياة" بحسب تعبير الشاعر الراحل محمود درويش.

وكانت لينا لا تزال تتخبط في هواجسها وكوابيسها التي تعيشها في اليقظة وفي المنام، لما دق باب بيتها المفتوح على البحر شاب مغربي جاءها برسالة من أختها. ومن أول نظرة، تشعر أنه قد يكون الرجل الذي يمكن أن ينقذها من أزمتها النفسية. وتزداد اقتناعا بذلك عندما يفتح لها الشاب قلبه، لتعلم أن والده كان صديقا لوالدها في سنوات الشباب، وأن كل واحد منهما كان يكنّ الود للآخر.

ورغم أن ظروف الحياة فرّقت بينهما فإن علاقة الصداقة ظلت متينة بينهما. وبعد جولات في العاصمة، تمضي لينا برفقة الشاب المغربي الذي يدعى حكيم إلى مدينة تونسية على البحر ليعيشا قصة حب قد تكون سعيدة "خلف الخط الأزرق".

ولكن يجدر بي أن أسوق بعض الملاحظات بشأن رواية أمال الشريف. أولاها تتعلق باللغة والأسلوب، حيث نلاحظ رتابة في السرد، وجملا واستعارات بادت من كثرة الاستعمال، وحوارات باهتة وطويلة كان بالإمكان اختصارها إلى بضع كلمات أو إلى إشارات سريعة.

وأما الأمر الثاني فهو أن رواية "خلف الخط الأزرق" أحالتني إلى قولة للشاعر البريطاني أودن الذي كتب يقول في نص له بعنوان "كيف نقرأ؟"، "يتوجّبُ على الشاعر وعلى الروائي أيضا أن يتعلم كيف يكون متواضعا أمام موضوعه، وأمام الحياة أيضا".

وأظن أن أمال الشريف لم تكن متواضعة أمام موضوعها إذ أنها عوض أن تكتفي بسرد تفاصيل أزماتها النفسية، قفزت بنا إلى العديد من المواضيع من دون أن تتعمق فيها لتسقط في الإسهاب، وفي الافتعال الذي هو "عدو الفن" بحسب بورخيس. وهذا الافتعال يبرز بالخصوص في استعادتها لزمن بورقيبة، ولزمن بن علي وكأنها ترغب في أن تقنعنا بأنها كانت معارضة لهذين النظامين، رغم أنها لا تقدم أي دليل على ذلك، بل هي تكتفي بإدانة النظامين من خلال قصص الآخرين، أي من خلال السماع، ولبس من خلال التجربة المعاشة.

وبسبب إقحام نفسها في مثل هذا الموضوع، فإن أمال الشريف ضلّت طريقها، وراحت تبحث مرتبكة عمّا يمكن أن يبرر فعلتها. كما أنها رغبت أن تحدثنا عن التسامح الديني والثقافي الذي كانت تتميز به تونس قبل الاستقلال، وبعده بسنوات قليلة، إلا أنها سرعان ما انقطعت عن ذلك لتنصرف إلى مواضيع أخرى. وفي النهاية نحن لا نعلم أي موضوع أرادت أمال الشريف أن تسرد وقائعه علينا في "خلف الخط الأزرق".

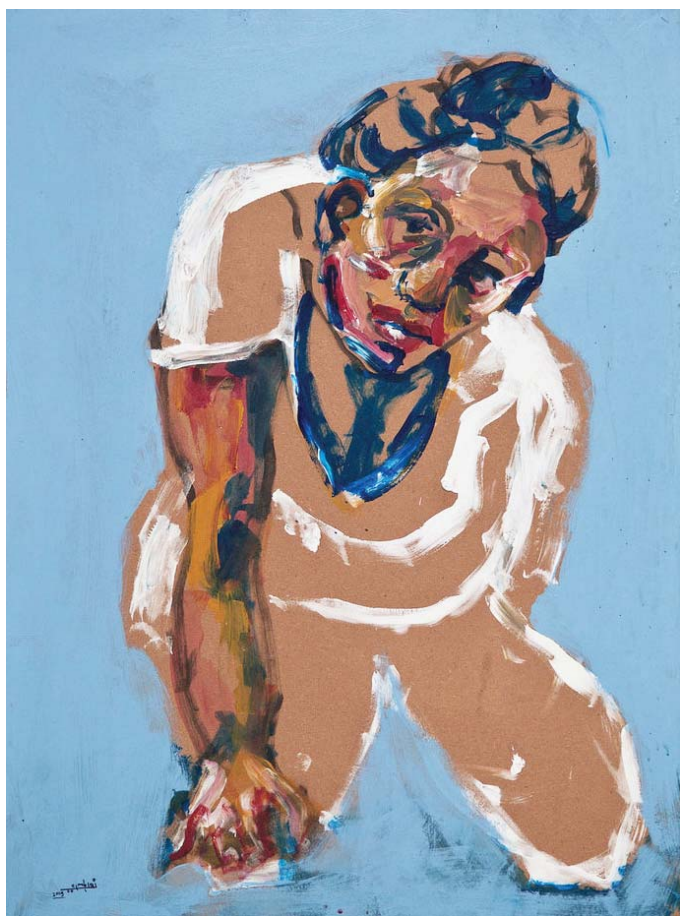

فتاة تبحث عن الحب (لوحة للفنانة نور بهجت)